

الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك

للككتور نبيل محمد عبد العزيز

مدرس تاريخ المصور الوسطى

كلية الآداب — جامعة أسيوط

تمهيد :

جاء في مختار الصحاح :

(الحمام عند العرب ذوات الأطواق (مثل)^(١) الفواخت ، والقمارى ،
وساق حُر ، والقطا ، والوارشين وأشباه ذلك .

الواحدة حمامة ، يقع على الذكر والأنثى .

وعند العامة أنها الدواجن فقط . وجمع الحمامة : حمام ، ودهامات ،

و دهائم ،) .

ومن هذا التعريف يفهم أن لفظ الحمام ، ومفرده حمامة ، يطلق
في اللغة على أنواع عديدة من الطيور تدخل في مجموعة واحدة وهي ذوات
الأطواق ، .

وقد أطلق في اللغة لفظ المطوقة ، على الحمامة التي في عنقها طوق .

ومها يكن من أمر ، فإتتا في بحثنا هذا إنما نعنى طائر الحمام بمعناه الشائع المعروف الذى ينقسم إلى قسمين : أحدهما - برى ، وهو نوع يلزم البروج وما شاكلها ، ومن عيوبه أنه كثير النفور ، ولذلك سمي برياً .

والنوع الثانى - الأهلى ، وهو الذى يألف البيوتات والمحلات المستوطنة ويُستفرخ فيها^(٢) .

والنوع الأخير يتخذ لعدة ضروب ، فمنها ما يتخذ فى البيوتات ، ومنها ما يتخذ للمساق والتلوى أو فى حمل الرسائل^(٣) ، كما إنه متعدد الأصناف ، والأشكال ، والألوان ، والأفعال ، (ومنها الرّواعب والعدّاد ، والميساق ، والشّدّاد ، والقلاب ، والشقاق ، والمنسوب)^(٤) .

على أنّ ما ننشده فى بحثنا هذا هو الحمام « المنسوب » ، أو ما يسميه العراقيون باسم « الهوادى » ، والمصريون « بحمام البطاقة »^(٥) ، أو الزاجل ، (وهو بالنسبة إلى ما تقدم ذكره كالعتاق من الخيل ، وما عداه فيها كالبراكين)^(٦) ، فهو أعلى الأنواع قيمة وأعلاها رتبة ؛ لأنه الذى يتخذه الملوك لحل المسكّنات ، ويُعبر عنه بالهدى^(٧) .

— أى الذى يهتدى طريقه بعد زجله أو تدريبه —^(٨) .

أولاً - الاعتناء بالحمام

والإهتمام بشأنه والأغراض التى استخدم فيها

اعتنى خلفاء بنى العباس كالحليفة « المهدي » ، و « الناصر » ، بالحمام اعتناءً كبيراً . كما تنافس فى اقتنائه وشراؤه رؤساء الناس فى العراق لاسيما فى مدينة البصرة ، إلى حد أنهم شروا الطائر الفاره بسبعمائة دينار ، كما قيل أنه (بلغ ثمن طائر مها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار ... وكانت تباع بيعتاً

الطائر المشهور بالفراشة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دقاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب^(٩) ، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ، ولا الفقيه ، ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأثرها ، والنعت لمشهورها^(١٠) .

ويقرر المؤرخون أن أول ما نُشئ الحمام بالديار المصرية والشامية كان من الموصل ، ثم حافظ عليه (الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالعوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام ، وللقاضى الفاضل محي الدين عبد الظاهر فى ذلك كتاب سماه : تمام الحمام)^(١١) .

ويجمع المؤرخون على أن أول من اتخذ من الملوكة الحمام الهوادى وعلمه فى جميع أنحاء مملكته الشهيد « نور الدين محمود بن زنكى » ، وذلك فى سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م)^(١٢) ، ويرجع سر ذلك إلى اتساع مملكة نور الدين ، فقد امتدت (من حد النوبة إلى باب همدان ، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج . وكان الفرنج - لعنهم الله - ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يسكنوا قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به إلى سائر البلاد ، وأجرى الجرايات لها ولمربها)^(١٣) .

وبذلك حفظت ثغور المسلمين وبلادهم ، (فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها ، فإنه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ومعه من حمام المدينة التى تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقتـه وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل إلى المدينة التى هو منها فى ساعته ، فتُنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين ، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه)^(١٤) .

أضف إلى ذلك أن نور الدين اهتم اهتماماً كبيراً بتشييد الأبراج على

الطرق ، وبين بلاد المسلمين والفرنج ، كما جمل في تلك الأبراج من يصونها ويحفظها ، ومعهم الطيور ، فإذا رأى الحفظة تحركاً ما من قبل العدو أرسلوا للطيور بذلك إلى نور الدين^(١٥) .

الأغراض التي استخدم فيها الحمام :

(١) التلوي :

ما تلوي الناس بشيء منذ القدم مثلما تلوهوا باللعب بالطيور المناسب ، فهم وإن ساقوا بينها ، فقد اهتموا بتحميلها البطائق ، فاستخدام الحمام إذن (يخرج من أبواب الهزل إلى أبواب الجد)^(١٦) .

« فالعزير بالله ، الفاطمي سابق بين طائر له وطائر لوزيره « يعقوب بن كلس » ، (فسبق طائر الوزير يعقوب طائر العزيز ، فشق ذلك على العزيز)^(١٧) . والسلطان « الملك الكامل شعبان » كان يحب لعب الحمام (فلما تسلطن تعالى في ذلك ، وقرب من يكون من أرباب هذا الشأن)^(١٨) .

لذلك لم يكن غريباً أن يصدر أمره بأن ينادى بالقاهرة ألا يفارض أحد لعب الحمام أو غيرهم من أرباب الملاعب^(١٩) .

كذلك شغف السلطان « المظفر حاجي » بلعب الحمام وغيره .

ويرجع « المقرئ » سر تعلقه بالحمام ، إلى أنه كان شغوفاً بثلاث نسوة ، حتى أنه انقطع إليهن بالدهيشة ، وهو أمر تقوله الأمراء ، وخوفه الأمراء الخاصكية عاقبة ذلك ، فأخرج النسوة جميعاً ، فأحب أن يتعوض عنهن بما يليه ويسليه ، واختار صنف الحمام وأنشأ حضيراً بأعلى الدهيشة ، وركبه على صوار وأخشاب عالية ، وملاه بأنواع الحمام ، فبلغ مصروف الحضير خاصة سبعين ألف درهم^(٢٠) . وفضلاً عن ذلك استمر اجتماع السلطان بالدهيشة بسائر أرباب الملاعب ، فشق ذلك على الأمراء ، فحدثه الأمير « الجيغاوطنيرق » ، « وكانا عمداً السلطان — فيما يتقوله الأمراء ، وخوفه سوء العاقبة ، بما أثار غضب

السلطان ، حتى أنه قام إلى السطح وذبح جميع الحمام بحضرتيها ، كما أغلق باب الدهيشة . إلا أن السلطان لم يكن ليطبق الإستغناء عن التلمى ، لذلك نراه ينتهز فرصة خروج الأمراء إلى الصعيد للصيد بجوارحه ، ورسم لهم ألا يعودوا إلى العشر الأخير من شهر رمضان . بخلاف الجو بذلك للسلطان (وأعاد حضير الحمام ، وأحضر إليه عدة من عبيده ، وأعاد أرباب الملاعب... .. فصار للسلطان إجتماع بالأوباش وأراذل الطوائف.... ومطيرى الحمام ، فكان يقف معهم ويراهن على الطير الفلاني والطيرة الفلانية . وبينما هو ذات يوم معهم عند حضير الحمام وقد سبىها إذأذن العصر بالقلعة والقرافة ، فجفأت الحمام على مقاصيرها وتطايرت ، فجرد السلطان وبعث إلى المؤذنين بأمرهم أنهم إذا رأوا الحمام لا يرفعون أصواتهم) (٢١) ١١ .

كما لا تنتهز فرصة قدوم « ابن الحراني » من دمشق بمال الأمير « يلبيغا » الحيواني ، وأنعم من ضمن من أنعم عليهم على (لعاب الحمام ، والفراشين ، والعبيد الذهب واللؤلؤ ، وصار يحذفه لهم وهم يترامون عليه ويأخذونه) (٢٢) . ولكن الأميرين « الجيغا » و« طنيرق » ، مازالا ينكران على السلطان أفعاله وتصرفاته ، وتخوفيه بسوء العاقبة ، حتى ضاق صدره ، فأمر شاد العماثر بتخريب حضير الحمام ، ثم قام وذبح بيده الحمام واحداً بعد واحد ، كما تواعد الأميرين بالذبح ، وإن كان الأمر قد انتهى بذبحه هو (٢٣) .

خلف السلطان « المظفر حاجي » ، في الحكم السلطان « الملك الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن بن محمد بن قلاوون » . وقد عين مصير سافه وعلم سبيه ، لذلك لم يكن غريباً أن يصدر أمره إلى شاد الدواوين بأن يستخلص من خدام « المظفر حاجي » ، ومن كان يعاشره من « الفراشين » و« مطيرى الحمام » ما أخذوه من مال ، فأقر الخدام أن الذي خص (العبيد والفراشين ومطيرى الحمام نحو مائة ألف درهم) (٢٤) .

كذلك شغف الخلفاء بلعب الحمام ، شأنهم في ذلك شأن السلاطين ،
 فالخليفة «الناصر لدين الله» (٥٧٥هـ / ١١٧٩م) وإن كان سنة (٥٩١هـ / ١١٩٤م)
 قد اعتنى (بحمام البطائق لعنتناء زائداً ، حتى صار يكتب بأنساب الطير المحاضر
 «أنه ولد الطير الفلاني» ، وقيل أبه باع طيراً بألف دينار» (٢٥) ، فإنه قد شغف
 أيضاً بلعب الحمام شغفاً عظيماً ، حتى حكى عنه - إن صححت الرواية -
 أنه لما دخلت التتار وتمسكت البلاد من ماوراء النهر إلى العراق وقتلوا الناس
 وهدموا الدور (دخل عليه الوزير ، فقال له : يامولانا إن التتار قد ملكت ...
 وقتلت المسلمين ، فقال الناصر لدين الله : دعني أنا في شيء أهم من ذلك ،
 طيرتي البلقاء لي ثلاثة أيام مارأيتها» (٢٦) !!

كذلك شغف بلعب الحمام كل من الخليفة «المعتصم بالله» (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م)
 - آخر خلفاء بني العباس ببغداد - والخليفة «المتوكل على الله محمد» (٢٧)
 (٥٧٦٣هـ / ١٣٦١م) .

والناس على دين ملوكهم» (٢٨) .

(ب) الحمام وأثره في القضاء على الفتن والثورات :

لقد ساعد الحمام حكام المسلمين في القضاء على كثير من الفتن والثورات
 وهي في مهدها . ففي سنة (٥٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) - على سبيل المثال -
 وقعت فتنة كبرى بين المسلمين وتجار الفرج (٢٩) ، وعندئذ بادروا بالكرى ،
 متولى نغر الاسكندرية بمطالعة السلطان بما حدث على جناح الطائر ، وبذلك
 أمكن للسلطان تدارك أمر تلك الفتنة وقضى عليها (٣٠) .

كذلك روى ابن بطوطة ، أنه حدث بمدينة جبلة - بالشام - أن
 ادعى شخص الهداية ، وتجمع الناس حوله ، فوعدهم بتملك البلاد ، كما قسم
 بلاد الشام بينهم ، ثم طلب منهم مقاتلة المسلمين ، على أن يدمروا جبلة ، ففقدوا

بأهلها والمسلمون في صلاة الجمعة ، واتصل خبر ذلك إلى أمير اللاذقية د. بهادر بن عبد الله ، ، فأقبل بمسالكه (وطيرت الحمام إلى طرابلس) فأتى أمير الأمراء بمسالكه واتبعوهم وكان الخبر قد طير به إلى الملك الناصر ، وصدر جوابه أن يحمل عليهم بالسيف (٢١) .

كذلك لعب الحمام دوراً هاماً في القضاء على المؤامرات الشخصية التي وقعت بين الأمراء ، أو بينهم وبين السلطان ، وفي التعبير عن رأى الأمراء في السلطان وتصرفاته .

من ذلك أن الملك العادل أبو بكر بن الملك الكامل ، بطق سنة (٦٢٦ هـ / ٢٢٣٨ م) إلى من بقى على ولايته له بضرورة محاربة المخامرين عليه ببليس ، فاقتتل الأكراد مع الأتراك ببليس وانتصروا عليهم (٢٢) . ومن ذلك أيضاً ما حدث من صراع داخلي مرير بين الأمراء الأيوبيين ، فقد أهدت سنة (٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) والصراع محتدم بين الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ، والملك الصالح اسماعيل . وكان الصالح أيوب ، قد بعث برسوله الطبيب د. سعد الدين ، الدمشقي من مدينة نابلس (ومعه طيور البطائق يعرفه أحوال الصالح اسماعيل ، وقتاً بوقت ، فكان د. سعد الدين ، يكتب البطائق بما يراه من تغير الأحوال ويربطها على أجنحة الحمام ويعطيهم للبراج ، فيمضى بهم د. السامري ، الذي عاد وزير الصالح اسماعيل ، ، وكان له بدمشق عيناً ، فيأخذ د. السامري ، تلك البطائق ويكتب للملك الصالح أيوب ، بعكس ما كتبه د. سعد الدين ، ، فيطيب خاطره بذلك) (٢٣) .

وفي نفس الوقت أخذ الصالح ، في مكاتبة عمه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ، في الوصول إليه بنا بلس ، وبعث إليه الطبيب د. سعد الدين ، ومعه الحمام ليسرحها إليه بما يتجدد (فانفق أمر عجيب ، وهو أنه لما وصل د. سعد الدين ، إلى قلعة بعلبك أنزله الصالح عماد الدين اسماعيل ، بدار ، وبذل

عوض الحمام الذى فى قفص سعد الدين ، بحمام آخر من حمام القلعة بـ (٢٤) .

شرع « الصالح عماد الدين » بعد ذلك فى التدبير لإنتزاع دمشق من يد أخيه « الملك الصالح نجم الدين أيوب » ، فنجده يرسل جواسيسه إلى ابن أخيه « الملك العادل » يعرفه بما عزم عليه ، وأنه فى طاعته ، وأنه فى حالة تمليك دمشق سوف يخطب له على منابرها ويضرب السكة باسمه ، كما كتب إلى « الملك المجاهد » صاحب حمص يلتمس معاونته .

يحدث كل ذلك وكتبه متواصلة إلى « الملك الصالح نجم الدين أيوب » بعده فيها بتقديم النجدة له (فقطن بذلك « الطبيب سعد الدين » ، وكتب البطائق على أجنحة الحمام بهذا الأمر إلى « الملك الصالح نجم الدين » ، فكان كلما سرح « سعد الدين » منها طائراً وقع فى برجه بقلعة بعلبك ، فأتى به البراج إلى الملك الصالح عماد الدين ، ثم إن الصالح عماد الدين زور بطاقة على الطبيب سعد الدين فيها « إن المولى الملك الصالح عماد الدين فى الإهتمام بالسير إلى المعسكر المنصور ، وإنه باقى على الطاعة ، وسرح هذه البطاقة المزورة على جناح طائرة من الطيور التى وصلت مع الطبيب سعد الدين » (٢٥) ، فلما وقعت هذه البطاقة ظن أنها من عند رسوله ، فطاب قلبه واطمأن .

والى « الصالح عماد الدين » إرسال البطائق المزورة ، فى الوقت الذى كان « سعد الدين » يسرح فيه البطائق فتقع فى قلعة بعلبك ، فتصل إلى « الصالح عماد الدين » (٢٦) .

وبذلك تمكن « الصالح عماد الدين » من أخذ دمشق ، على حين عاد « الملك الصالح » ، غائباً (٢٧) .

أما فى عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام فقد إزداد الإعتماد على

الحمام المزاجل حتى صار له أثر كبير في تجميع قوى السلطان للقضاء على
العلاقل التي حدثت من جانب المناوئين له أو المخامرين عليه من الأمراء .

ففي أثناء الصراع الذي دار بين الأمير الكبير « يلبغا » وبين غيره من
الأمراء والسلطان شعبان ، نادى من بقي على ولائه للسلطان ، وبعد أن فر
الأمير « يلبغا » بأن من أراد من الأمراء الأمير « يلبغا » فليتبعة ، ومن
أراد السلطان فليقيم مع من بقي من الأمراء في محاربة « يلبغا » . (وكتب
البطائق إلى الإسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، والبرلس على أجنحة الحمام
بقدوم من بها من الأمراء والأجناد . . . وكتب بحضور من بالوجه القبلي والوجه
البحري أيضا) (٢٨) ، وعلى ذلك تمكن السلطان من مجابهة الخصوم (٢٩) .

كذلك حدثت بدمشق سنة (٥٧٩٢ / ١٢٨٩ م) غوغاء عظيمة وصلت
أخبارها إلى مصر ، وذلك أن طوائف من المماليك وعوام دمشق تجمعوا
بقيادة تملكها ، فبرح الأمير الكبير « أيتمش » الطائر من قلعة دمشق إلى
سلبية يعلم الأمير « يلبغا الناصري » بذلك ، فركب « الناصري » من فوره
والوقت منتصف الليل وتقاتل مع المذكورين (٣٠) .

ومثال ذلك حدث سنة (٥٨٠٧ / ١٤٠٤ م) عندما ركب الأمير
« يشبك الشعباني » والأمراء لمحاربة السلطان ، وواصلوا مسيرهم من دمشق
حتى قاربوا بليس ، وهنا وقعت البطاقة من بليس تفيد بأن العساكر الشامية
المخامرين قد وصلوا إلى قطيا فحين علم السلطان ذلك خرج إليهم بعساكره واقتل
معهم (٤١) .

ومن ناحية أخرى لعب الحمام دوراً هاماً في الإفصاح عن رأى المماليك
في السلطان وأفعاله . فهم وإن لم يستطيعوا مواجهته برأيهم ، إلا أنهم لجأوا
إلى توصيل رأيهم إليه على أجنحة الحمام .

من ذلك ما حدث سنة (٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م) عندما كثرت الأوزار
المرسلة في السلطان وأمرائه وأهل دولته (وإلقائها من غير أن يعلم من أين
هي ، أو ربطها بجناح طائر حمام ، وحذفه خارج حائط الميدان تحت القلعة
إلى داخله) (٤٢) .

ومثال ما حدث سنة (٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) إذ (ألقيت ورقة في جناح
طائر وجدت بالإسطنبول تتضمن الإنكار على السلطان ، وأنه فرط في ملكه
ومالئكه ، والعسكر قد تلف ، وقد باع أولاد الناس الإقطاعات التي بأسمائهم ،
وصاروا يسألون الناس الحاجة) (٤٣) .

وتكرر نفس الشيء سنة (٧٢٦ هـ / ١٣٣٥ م) ، إذ سقط طائر حمام
بالميدان وعلى جناحه ورقة تضمنت الوقعة بالأمير اللشوي وذويه ، والقدح
في السلطان بأنه خرّب دولته (٤٤) .

(ح) الحمام وأهميته في وقائع المسلمين :

استفاد المسلمون من خدمات الحمام الزاجل في وقائعهم وخاصة ضد
الصليبيين والتتار .

مثال ذلك أنه حدث أثناء نوبة عكا سنة (٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م) أن انقطع
خبر البلد ، وامتنع دخول الإمداد إليها بسبب محاصرة الفرنج لشاطئها ،
فانتدب العوام للسباحة إليها ، بعد أن حملوا على أوساطهم نفقات الأجناد .

ويصف لنا الأصفهاني ، في أسلوب شيق مخاطرة هؤلاء العوام والمكانة
التي صارت للحمام في نفوس الأجناد بعد تلك النوبة بقوله :

(ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم ، ويحملون كتباً وطيوراً ،
ويعودون بكتب وطيور ، ونكتب إليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام

بالفرجة المصطلح عليها من الأمور... وكان في العسكر من اتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل في منزله ، وعمل لها برجاً من خشب وهرادى - قطع ممزقة - من قصب ، ويدرجها على الطيران من البعد ، ويوردها لشبعها وربها أحب الحب وأعذب الورد . وكنا نقول : وما هذا الولع بما لا ينفع والوله بما لا ينفع ، حتى جاءت نوبة عكاء فنفعت ... فصرنا نحبوا صاحب الطيور بالإطراء ونخصه بالمدح والثناء ونأمره بالإستكثار... وكنا نعرف بها جليلة الأحوال... فإنها أمانة على الأسرار (٤٥).

كذلك ساهم الحمام الزاجل في اطلاع حكام المسلمين على كل ما يتجدد بالثغور وغيرها ، فقد جرت العادة (أن يطالع نواب المملكة السلطان بما يتجدد عندهم على أيدي البريدية : وتارة على أجنحة الحمام ، فتعود إليهم الأجوبة السلطانية وعليها العلامة) (٤٦) .

وعلى ذلك فحينما نازلت طائفة من الفرنج نقرأ لنور الدين ، أثناء الخبر في يومه (فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالإجتاع والمسير بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك فظفروا ، والفرنج أمنوا لبعد نور الدين) (٤٧) .

وحينما نازل الفرنج برج دمياط سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) ، خرج الملك الكامل ، بمساكره في ثالث يوم من سقوط البطاقة بخبر نزول الفرنج (٤٨) .

وإبان كبسة الفرنج لمدينة المنصورة سنة (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م) سرح الطائر بذلك إلى القاهرة (٤٩) .

كذلك لعب الحمام نفس الدور في مجابهة المسلمين لجحافل التتار .

ففي سنة (٥٦٨٠ / ١٢٨١ م) حدث أن قفز شخص من التتر إلى حماره وطلب من نائبيها أن يكتب (الساعة إلى السلطان على جناح الحمام ، وعرفه أن القوم ثمانون ألف مقاتل تحت القلب ... وهم طالبون القلب ، والميمنة التي لهم قوة جداً ، فيقوى مبصرة المسلمين ، ويحترز على السناجق ، ففر السلطان الكتاب ، وركب عند إسفار الصباح لتقوية المبصرة) (٥٠) .

ومن جهة أخرى فقد جرت العادة في نقل الأخبار السعيدة ، كانتصار المسلمين على أعدائهم أو غير ذلك من المناسبات السعيدة ، أن تخلق — تمسح — الطيور وبطائنها بالمطور الطيبة . أما في حالة الأخبار السيئة ، كالخروج مثلاً — فكانت تطلخ وبطائنها بالسواد (٥١) .

يضاف إلى كل ما سبق ذكره أن الحمام الزاجل استخدم في أغراض ومناسبات أخرى ، مثل الإعلام بموعد قدوم السلطان — من الشام مثلاً — إلى عاصمة ملكه ، بقصد الاستعداد لاستقباله ، كما استخدم في إخطار السلطان بكل من يصل أو يتطرق على حدود المملكة المصرية (إمامن واصل أو هارب) (٥٢) ، بقصد الحصول على إذن باستقباله أو رده .

إذ لما نزل «تورانشاة» بقلعة دمشق وحلف له الأمراء وتسلطن بطق الطائر بذلك إلى المعسكر والقاهرة ، فضربت البشائر بالمعسكر وبالقاهرة (٥٣) .

وبعد أن نزل السلطان «فرج» قطيا — بعد مجيئه من الشام — (سرح الطائر إلى قلعة الجبل بأنه يقدم يوم الأربعاء ثاني عشرة ، فتأهب الناس إلى لقائه وخرجوا إليه) (٥٤) .

وفي سنة (٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) وقعت بطاقة تتضمن قدوم الأمير «كزل» ، الذي أتى لينخر السلطان «فرج» ، بأن «المساكر المصرية والشامية قد انفقوا على كلمة واحدة» ، وأنهم خلعوه (٥٥) .

وفي سنة (٨٢٠/١٤١٧ م) قدم الأمير أقباي المؤيدي ، نائب حلب
بغير رسوم من السلطان (وكان عند وصوله إلى قطيا أرسلوا البطاقة بحضوره
فأمر بتلقيه ، فتلقوه بسرياقوس) (٥٦) .

وفي أثناء حرب المسلمين للنتار سنة (٦٨٠/١٢٨١ م) ورد الخبر إلى
مصر من قاقون على جناح الطائر ، بأن جماعة من ميسرة العساكر السلطانية
وصلوا منهزمين من العدو (ووصل بعض الأمراء إلى قطيا ... فاشتد القلق
عند ورود هذا الخبر ، وجرى الملك الصالح في الحال عسكراً ... في كثير من
العربان إلى قطيا لرد المنهزمين وإعادتهم) (٥٧) .

ثانياً — اختيار حمام البطائق وتعليمه وكيفية إرساله بالبطاقة

(١) ما يختار للزجل من الحمام :

تفرس العلماء والأفندمون وذوو الفرائسات في اختيار الحمام المراد زجله ،
شأنهم في ذلك شأن تفرسهم في الخيل والناس والجواهر ؛ وذلك لأن الطير
— كغيرها — تختلف في طباعها اختلافاً شديداً ، (فمنها القوى ، ومنها
الضعيف ، ومنها البطيء ، ومنها السريع ، ومنها الذهول ، ومنها الذكور ،
ومنها القليل الصبر على العطش ومنها الصبور ، وذلك لا يخفى فيهن عند التعليم
والتوطين في سرعة الإجابة والإبطاء) (٥٨) .

وكان أن اتفقوا على أن جميع الفرائسة التي لا تخطئ في حمام الأمصار
لا تخرج عن أربعة وجوه :

الوجه الأول : التقطيع ، والثاني : المجسدة (٥٩) .

والثالث : الشائل ، والرابع : الحركة .

(فأما التقطيع، فانتصاب العنق والخلقة، واستدارة الرأس من غير عظم ولا صغر، وعظم القرظمتين (٦٠) ونقاؤهما، واتساع المنخرين، وانهرات الشدقين، وسعة الجوف، ثم حسن خلقة العينين مع توقدهما، وقصر المنقار في غير دقة ثم اتساع الصدر، وامتلاء الجؤجؤ (٦١)، وطول العنق، واشراف المنكبين، وانكاش الجناحين، وطول القوادم في غير إفراط، ولحوق بعض الحوافي ببعض، وصلابة القصب في غير اتفاخ ولا ييس، واجتماع الخلق في غير الجمودة والكزازة (٦٢)، وعظم الفخذين، وقصر الساقين والوظيفين، وافتراق الأصابع، وقصر الذنب، وخفته من غير تفنين (٦٣) وتفریق، ثم توقد الحدقتين، وصفاء اللون. فهذه علامة الفراسة في التقطيع.

وأما علامة المجسة، فوثاقة الخلق، وشدة اللحم، ومثانة العصب، وصلابة القصب، ولين الريش في غير رقة، وصلابة المنقار في غير دقة.

وأما علامة الشئال، فقلة الإختيال، وصفاء البصر، وثبات النظر، وشدة الحذر، وحسن التلفت، وقلة الرعدة عند الفرع، وخفة النهوض إذا طار، وترك المبادرة إذا لقط.

وأما علامة الحركة، فالطيران في علو، ومد العنق في سمو، وقلة الإضطراب في جو السماء، وضم الجناحين في الهواء، وتتابع الركض في غير اختلاط، وحسن القصد في غير دوران، وشدة المد في الطيران. فإذا أصبته جامعاً لهذه الصفات فهو الطائر الكامل (٦٤)، (ولا يقدر ما فيه من هذه المحاسن تكون هدايته وبرايته) (٦٥).

كذلك تفرسوا في ألوان الحمام وشيائه، بل وفي تعداد الرياش المعبرة فيها، وهي ريش أجنحتها وأذناها (٦٦)، ويبان الفرق بين الذكر والأنثى والزمان والمكان اللاتقيين بالإفراخ (٦٧).

ففيما يختص باللون والشيث أجمع العلماء على أن أحسن الحمام الهداء ما كان لونه أبيض أو أخضر أو كان منمراً (٦٨) .

ولإذا كان العراقيون هم أول من أعتنوا بالحمام وتنافسوا في اقتنائه وذلك منذ عهد خلفاء بني العباس (٦٩) ، فإنهم قد اختلفوا في الجنس المراد زجله .

فالبغداديون يفضلون الإناث على الذكور . وحجتهم في ذلك (أن الذكر إذا سافر وبسعد عهده بقمط الإناث ، وتاقت نفسه إلى السفاد ، ورأى أناه في طريقه ، ترك الطلب إن كان بعد في الجولان ، أو ترك السير إن كان وقع على القصد ومال إلى الآثي ، وفي ذلك الفساد كله) (٧٠) .

أما البصريون فيزعمون أن الذكر (أحسن إلى بيته لمكان أناه ، وهو أشد متناً وأقوى بدناً ، وهو أحسن لهتداء ، فنحن لا ندع تقديم الشيء القائم إلى معنى قد يعرض وقد لا يعرض) (٧١) .

(ب) طريقة زجل الحمام :

تصح الإشارة أولاً إلى أن القاعدة العامة في الزجل ألا يزجل الزجال من الحمام (ما كان منشؤه في بلاد الحر في بلاد البرد ، ولا ما كان منشؤه في بلاد البرد في بلاد الحر ، إلا ما كان بعد الإعتياد ، ولا يصبر على طول الطيران في غير هوانه وأجوانه طائر إلا بطول الإنامة في ذلك المكان) (٧٢) .

يبدأ زجل الحمام بعد فطامه عن أبويه مباشرة (٧٣) ، فيشرع الزجال أولاً في إطعام الأفراخ من يده ، وفي سقيها من فمه ، حتى إذا علم أنها قد رشبت وارتوت أخذ في مداعبتها والسير أمامها لمتبعتها ، يفعل ذلك في نهاره مرتين أو أكثر ، وذلك كله بقصد تعويدها الألفة والإلتئاس .

فإذا لاحظ أن الأفراخ قد اشتدت وفريت على الطيران قليلاً ، وضع مع كل فرخ الجنس المخالف له ، وذلك ليألف كل صاحبه (٧٤) .

فإذا أراد أن يمرن الأفراخ على الطيران أخرجها وهي جائعة مع قبيلة من الحمام الفاره ، حتى إذا ألقى إليها الحب أسرع في النزول للقطها (٧٥) .

وينصح الجاحظ ، الرجال في هذا الشأن بقوله : (ولا تخرج والريح عاصف ، فتخرج قبل المغرب وانتصاف النهار ، وحداقهم لا يخرجونها مع ذكورة الحمام ، فإن الذكورة يمتريها النشاط والطيران والتباعد ومهلولة القبيلة ، فإن طارت الأفراخ معها سقطت على دور الناس ، فرياضتها شديدة ، وتحتاج إلى معرفة وعناية ، وإلى صبر ومطاولاة) (٧٦) .

فإذا اكملت تلك المرحلة خرج الرجال بالحمام إلى ظهر سطح طال ونصب عليه علماً ذات لون واضح ، ثم أخذ في تطيير الحمام ، شريطة ألا يجاوز الحمام ذلك المحل ، وأن يكون علف الحمام بالغذاء والعش ، ثم يلقى لها ذلك العلف بعد تطييرها (قريباً من عليه المنسوب له حتى يألف المكان ويتعود الرجوع إليه) (٧٧) .

ولا ينبغي للرجال أن يطير الذكر وأنثاه ، بل يحمل (أحدهما محتسباً إذا أرسل صاحبه ؛ ليتذكره فيرجع إليه ، فإن خيف عليه أن يكون قد مل زوجته عرضت عليه زوجة أخرى قبل الرجل) (٧٨) .

وله أن يقص أو ينفث (٧٩) الأنثى ويطير الذكر ، فإنه يتوق إلى زوجته وينزع إليها مبرعاً .

فإذا إهتدى الذكر إلى المكان ، ونبت ريش الأنثى صنع بها كذلك (٨٠) فإن إهتدت بدورها إلى المكان ، طيرا جميعاً ومنعا من الاستقرار ، إلا أن يظن بهما الإعياء والكلال .

فإذا اكملت تلك المرحلة وطن لهما الرجال سائر المراحل في العمير البحر بحيث إذا ارتفعوا في الجو من أى مكان عابنا السطح والعلم ، فإن رجلا من السكان الذى طيرهما منه مرات ومرات ، زجلا إلى مكان أبعد منه (٨١) ، وهكذا حتى يبلغ بهما الغاية .

أما إذا ذعر الحمام فى أثناء طيرانه من طلب جارح له ، قالوا يجب على الرجال أن يضمه ويستقر به ، وذلك لأن الذعر يظل به (لا يفارقه ولا يسكن حتى تستأنف به للتوطين) (٨٢) .

كذلك يجب على كل زجال أن يعلم الحمام ورود العيون والغدران والأنهار ، فقد يحتاج الحمام إلى الشرب أثناء رحلته ، فإذا لم يكن قد تعود نظر المستطحات المائية والشرب منها لاضطرب وغرق .

يبدأ ذلك الأسلوب بأن يكف الرجال بصر الحمامة بأصابعه ، (وليسكن معطشا ، فإنه أجدر أن يشرب . نفعل ذلك مرارا ثم تفسح له المنظر أولا أولا حتى ينكر ما هو فيه ، فلا تزال به حتى يعتاد الشرب بغير متردد) (٨٣) .

فإذا حذق الزوجان كل ماسبق ، وضعا فى قفص يسمح لهما بمشاهدة طريق الرحلة ، وأرسلا إلى المحل المراد مراسته (٨٤) . القاعدة إذن هي تبادل الحمام بين المدن ، فقد كان - وعلى سبيل المثال - (بدمشق حمام من مصر ، وبمصر حمام من دمشق) (٨٥) .

فإذا وصلا ، حبسهما البراج أكثر من شهر ، وأخذ فى إطعامهما من يده يوميا مع مداعبتهما ، وذلك حتى يعتادا السكان وبالنسبة البراج ، فإنه إذا تم جعل فى تسريحهما ربما رجعا إلى مكانهما الأول ، ولم يعودا (٨٦) .

(ج) تسريح الحمام :

القاعدة العامة فى التسريح هو ما سبقت الإشارة إليها من ضرورة حبس

الأثني وإرسال الذكر أو العكس ، وأن لا ترسل الحمام إلا بعد إطعامهما
الطعام الكافي .

وكانت العادة المتبعة في كل ملكة من الممالك الإسلامية أن يتوخى الإبعاد
في التسريع عند استقرار الحمام ؛ (والقصد بذلك أنها لا ترجع إلى أبراجها
من قريب) (٨٧) .

والواجب أنه إذا أطلق الطائر من مصر فلا يطلق إلا من أمكنة معلومة ،
فإذا سرح من قلعة الجبل إلى الإسكندرية فلا يسرح إلا من أول المراكز
وهي منية عقبة بالجيزة ، وإذا سرح إلى جهة الشرقية فلا يسرح إلا من مسجد
تبر (٨٨) خارج القاهرة . أما إذا سرح إلى دمياط فلا يسرح إلا من ناحية
بيسوس بشط بحر منجى (٨٩) ، (وكان يسير مع البراجين من يوصلهم إلى هذه
الأماكن من الجندارية) (٩٠) لحمايتهم وحفظ مكثون الحمام .

فإذا كانت الحمامة غير فارغة وجب على البراج أن يتبعها بالملاحظة
قليلاً مقدار ربع ساعة حتى لا تتوقف في إحدى الأشجار عن التسريع ، فإن
توقفت وجب عليه أن يحثها على الطيران (٩١) .

ولضمان تعويد الحمام غير الفارغة على الرواح والرجوع — دون ما عناء
فإن بعض البراجين يقومون بحبس الأثني ، وإرسال الذكر مع أثني المكان
المراد مراسلته ، وحين بلوغهما ذلك المكان ، تحبس الأثني ويسرح الذكر
بالجواب إلى المكان الذي أتى منه (٩٢) .

ولزيادة الإطمئنان في توصيل البطاقات إلى المرسلين ، كانت القاعدة
الغالبية أن تسرح إحدى الطيور أولاً ، ثم بعد ساعتين من إطلاق الأولى
تسرح الثانية ، ولذلك كان (ولا بد وأن يكتب : « سرح الطائر ورفيقه » ،
حتى إذا تأخر الواحد رقب حضوره أو تطلب) (٩٣) ، أو أن يطلق الثاني
لئلا يكون الأول قد وقع في أحد أبراج المدينة (٩٤) .

كما اقتضت العادة أن يعمل في الطيور السلطانية علائم ليسهل تمييزها عن غيرها ، (وهي داغات في أرجلها ، أو على منافيرها ، ويسمى أرباب الملعب : (الإصطلاح) ، (٩٥) .

وكان إذا سقط الطائر بالبطاقة لا يجرؤ أحد أن يقطع البطاقة منه إلا السلطان ، بيده من غير واسطة ، فقد كان لهم (عناية شديدة بالطائر ، حتى أن السلطان إذا كان يأكل وسقط الطائر لا يميل حتى يفرغ من الأكل ، بل يحمل البطاقة ويترك الأكل ، وهكذا إذا كان نائماً لا يميل بل ينفه) (٩٦) .

وكذلك إن كان في الموكب ، أو يلعب بالأكرة ، وذلك كله (لأنه بلبحة يفوت ولا يستدرك المهم العظيم ، إما من واصل ، أو هارب ، وإما من متجدد في الثغور) (٩٧) .

(د) نسخ البطائق وطريقة تعليقها بالطائر

(١) نسخ البطائق :

تكتب بطائق الحمام - فضلاً عن المملطات ، وما في معناها - بقلم يعرف «بالخبار» ، وهو قلم ضئيل ، (سمى بذلك لدقته . . . وبعضهم يسميه «قلم الجناح» ، (٩٨) . هذا وقد استخدم في نسخ البطائق ورق صغير خفيف عرف باسم «البطائق» ، (٩٩) .

والجدير بالذكر أن نسخ البطائق كان على ضربين :

الضرب الأول : أن تكون البطاقة «بعلامة شريفة» ، (١٠٠) .

وتكون نحو ثلثي وصل من ورق البطائق (١٠١) .

ويذكر كل من «السيوطي والمقريزي» ، نقلاً عن كتاب «تمام الحفائم» لابن عبد الظاهر ، أن «ابن عبد الظاهر» (١٠٢) رأى الأوائل لا يكتبون في أولها بسملة (١٠٣) ، إنما تكون صورتها على حسب ما ذكره «القلقشندي» ، (أن يكتب في رأس الورق المذكور في الوسط سواء : «الإسم الشريف» ،

وثمته ملصقا به من غير بياض سطر واحد كامل من يمين الورق بغير هامش بما يأتي ذكره .

ثم يحل بيت العلامة تقدير أربعة أصابع مطبوعة ، ثم تكتب تنمة الكلام أسطر متلاصقة بنسبة الأول ، بغير هامش أصلا إلى آخره ، والذي يكتب من يمين الورق : « الله الهادي ، سرح الطائر الميمون ورفيقه ، هداها الله تعالى في الساعة الفلانية ، من اليوم الفلاني ، من الشهر الفلاني ، من سنة كذا وكذا (١٠٤) ، إلى المجلس الكريم ، أو السامي ، الأمير فلان وإلى فلانة ، أو نحو ذلك ، يعلمه أن الأمر كذا وكذا ، ومرسومنا إليه أن يتقدم بكذا وكذا ، فليعلم ذلك ويعتمده ، والله الموفق بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى ، حسبنا الله ونعم الوكيل . والمستند لها : « حسب المرسوم الشريف » (١٠٥) .

كذلك أورد كل من المقرزي والسيوطي ، ملاحظات « ابن عبد الظاهر على مواد البطائق والتي شارك في كتابتها بعضها ، أنه (لا يكثر في نفوس المخاطب فيها ، ولا يذكر حشو في الألفاظ ، ولا يكتب إلا لب الكلام وزيدته . . . ، ولا يعمل للبطائق هامش ولا تجمل) (١٠٦) ، (وجرت العادة بأن يكتب في آخرها : « وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ، وذلك حفظ لها) (١٠٧) .

الضرب الثاني : أن تكون بغير علامة .

(وصورتها أن يكتب في رأس الورقة ، في الوسط موضع الإيم : « الله الهادي بكرمه ، ، والأسطر متلاصقة بغير هامش ، ولا يحل فيها بيت علامة . وصورة ما يكتب فيها : « المرسوم بالأمر الشريف العالي ، المولوي ، السلطاني ، الملكي ، الفلاني ، الفلاني ، أعلاه الله تعالى وصرفه ، أن يسرح هذا الطائر الميمون ورفيقه ، هداها الله تعالى في وقت كذا وكذا ، ويكمل على حسب

ما تقدم . د والله الموفق حسب المرسوم الشريف ، إن شاء الله تعالى (١٠٨) .

أما إذا تطلب الحال نقل البطاقة من مكان بعيد عن السلطان ، فيجب أن تعنون البطاقة ، (فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفترقها أحد . وكل وال تصل إليه يكتب في ظهرها أنها وصلت إليه ونقلها ، حتى تصل مخومة) (١٠٩) .

أما إذا كانت مرسله إلى غير ذات السلطان ، مثل أن تنقل من بليس إلى قطيا (فيكتب بعد ذكر المرسوم به : د ويتقدم بنقل البطاقة إلى فلان الفلاني ، ليعتمد مضمونها ويعمل بحسبها ، ، فإن كانت منقولة إلى مكان ثالث كذب بعد ذلك : د ثم ينقلها إلى فلان ، ليعتمد مضمونها أيضاً ويعمل بمقتضاها ، فيعلم ذلك ويعتمده ، ، والتتمة حسب ما تقدم) (١١٠) .

هذا في أوقات السلم ، أما في أوقات الحروب فكانت البطائق تحمل على (أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور) (١١١) .

(ب) تعليق البطاقة بالطائر :

جرت العادة أولاً ألا تحمل البطاقة إلا تحت جناح الطائر ، مغروزة ومثبتة به بحيط رفيع (لأمور منها : حفظ البطاقة من المطر ، وقوة الجناح) (١١٢) .

ولكنهم عدلوا عن ذلك ووضعوها في ذنب الطائر (١١٣) ، ويرجع ذلك إلى أنها إذا وضعت تحت ذنب الطائر (صارت خوافي وراء الخوافي ، وغطت مرها المودع بكتمان سمجت عليه ذبول ريشها الضوافي) (١١٤) .

ثالثا - مراکز الحمام

كان للحمام مراکز (أبراج) شأنه في ذلك شأن محطات البريد ، وكانت المسافة بين المركز والآخر تعادل (ثلاثة مراکز من مراکز البريد ، فلا يتعدى الحمام ذلك المركز ، وينقل عنه نزوله المركز ما على جناحه إلى طائر آخر ، حتى يسقط بقلعة الجبل ، فيحضره البراج ، ويقرا كاتب السر البطاقة (١١٥) على السلطان .

ويذكر المقرئ ، أنه كان بقلعة الجبل عدة أبراج يرسم الحمام الزاجل ، وأنه بلغت عدتها - على حسب ما ذكر في كتاب د تمانم الحمام ، إلى آخر سنة سبع وثمانين وستمائة - ألف وتسعمائة طائر ، وأنه بها عدة من المقدمين لكل واحد منهم جزء معلوم ، وأن الطيور المذكورة ما كانت تبرح أبراج القلعة إلا للتسريع ، عدا طائفة منها ، فإنها كانت في برج بالبرقية ، يعرف برج الفيوم ، وهو برج رتبة الأمير ، وفخر الذين عثمان بن قزل ، ، أستاذار الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، الذي شمل إقطاعه جميع أراضي الفيوم (١١٦) .

كما كان في كل مركز من المراكز التي بين مصر والشام - ما بين أسوان إلى الفرات - والتغور حمائم لا تحصى ، (وجميعها تدرج وتنقل من القلعة إلى سائر الجهات . وكان لها بغال الحمل من الإصطبلات السلطانية ، وجامكيات البراجين والعلوفات تصرف من الأهراء السلطانية ، فتبلغ النعقة عليها من الأموال ما لا يحصى كثرة . وكانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع وية فول كل يوم) (١١٧) .

خطوط المسارح :

أولا : الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى سائر الجهات في عصر سلاطين المماليك :

(أ) الخط بين قلعة الجبل والوجه القبلي .

ويقرر المؤرخون أن تدريج الحمام بالوجه القبلي قد انقطع ، وأنه (كان متصلا إلى قوص وأسوان وعيذاب) (١١٨) .

ويرجع ابن شاهين ، هذا الإنقطاع إلى خراب قوص ، إذ يقول مانصه : (فأما ما كان من قلعة الجبل إلى قوص ، فله مدة مديدة بطل لكثرة خراب قوص) (١١٩) .

والمعروف أنه لنقل إحدى البطاقات على خط واحد من خطوط الحمام الزاجل ، أن الرسالة لا بد وأن تمر على جميع المراكز الواقعة على هذا الخط (١٢٠) ، وأن خراب أى مركز يقضى على ما يتبعه من مراكز .

(ب) الخط من قلعة الجبل إلى نغر الاسكندرية ، ويضم مركزين هما : منوف العليا ، ودمهور الوحش (١٢١) .

(ج) الخط من قلعة الجبل إلى نغر دمياط ، وبه مركزان : بنى عبيد ، وأشمون الرمان (١٢٢) .

(د) الخط من قلعة الجبل إلى السويس ، من طريق الحاج (١٢٣) .

(هـ) الخط من قلعة الجبل إلى بلبيس ، متصلا بالشام (١٢٤) .

ويقرر القلقشندي ، أن (أهمل هذه الأبراج كلها برج قلعة الجبل المحروسة ، ومنها التدريج إلى سائر الجهات) (١٢٥) .
هذا وينفرد ابن شاهين ، بذكر مسارح للحمام آخذة من قلعة الجبل

إلى الفرات ، وتمر أولا ببليس ، ثم الصالحية ، ثم قطيا ، ثم الواردة ، ثم غزة ، ومنها يتفرع المسارح إلى جهة دمشق ، وإلى غير جهتها (١٢٦) .

ثانيا : الأبراج الآخذة من غزة وما يتفرع عنها :

تنشعب مسارح الحمام الآخذة من غزة إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها . فاما المسارح الآخذة إلى غير جهة دمشق ، فن غزة إلى الخليل ، ومن غزة إلى القدس ، ومن غزة إلى نابلس (١٢٧) .

وأما ما كان إلى جهة الشام ، فن غزة إلى لُد ، ومن لد إلى قاقون ، ومن قاقون إلى جينين ، ومن جينين تنشعب المسارح إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها .

فاما ما كان إلى غير جهة دمشق ، فن جينين إلى صفد .

وأما ما كان إلى جهة دمشق ، فن جينين إلى بيسان ، ومن بيسان إلى أربد ، ومن أربد إلى طفس ، ومن طفس إلى الصنمين ، ومن الصنمين إلى دمشق ، (ومن كل واحدة من هذه المراكز إلى ما جاورها من المشاهير ، كن بيسان إلى أذوحات ، ومن طفس إليها ؛ لإشعار وإلى الولاية) (١٢٨) .

ثالثا : الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرع عنها :

وتنشعب من دمشق إلى غير جهة حلب وإلى جهتها .

فاما المسارح التي إلى غير جهة حلب ، فن دمشق إلى بعلبك ومن دمشق إلى القريتين (١٢٩) .

هذا وينفرد ابن شاهين ، بذكر مسارح أخرى من دمشق ، إذ يقول ما نصه : (ومن دمشق إلى صيدا ، وإلى بيروت ، وإلى تربة ، ثم إلى طرابلس) (١٣٠) .

وأما ما كان إلى جهة حلب، فن دمشق إلى قارا، ثم من قارا إلى حمص،
ومن حمص إلى حماة، ومن حماة إلى المعرة، ثم من المعرة إلى حلب (١٣١).

رابعاً - الأبراج الآخذة من حلب وما يتفرع عنها :

من حلب إلى البيرة، ومن حلب إلى قلعة الروم (١٣٢)، ومن حلب إلى
بهنسا، ومنها إلى (بقية ماله شأن عما حولها) (١٣٣)، ثم من القريتين إلى
تدمر، ومنها إلى السخنة، ومنها إلى قبايق، ومنها إلى الرحبة.

ويذكر «العمرى» أن تدريج الحمام قد تعطل على أيامه من السخنة إلى
قبايق، وإنما صار يسوق ببطانق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قبايق،
ثم يسرح من قبايق إلى الرحبة (١٣٤).

وإلى جانب ما سبق ذكره من تسريع غير مباشر، كان هناك تسريع
مباشر بين قلعة الجبل والولايات الأخرى، فإذا أراد السلطان أن يبعث
برسالة عاجلة إلى دمشق - على سبيل المثال - أطلق حمامة من حماماتها،
فتصل إليها في مرحلة واحدة، فقد كان بدمشق حمام من مصر، وبمصر
حمام من دمشق (١٣٥) كما سبق أن ذكرنا.

ويقرر «المقرئى» في صراحة أنه (قد بطل الحمام من سائر المملكة
إلا ما كان ينقل من قطيا إلى بلديس، ومن بلديس إلى قلعة الجبل) (١٣٦).

أما ما كان بين مصر وغيرها من الممالك الإسلامية، فالملاحظ أنه ظل
 قائماً، وإن اقتصر على الأمور المستعجلة، والسابق ذكرها.

أما عدا ذلك، فقد حل البريد محله، وفي أحيان كثيرة استخدم النظامان
 معاً، ففي سنة (٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م) - على سبيل المثال - (سقط الطائر

بفتح سببس ، بعث به الأمير « بيدمر » نائب الشام ، ثم قدم من الغد البريد من النواب بذلك (١٣٧) .

غير أن النظامين مالبثا أن هويّا تحت ضربات المغول وتخريبهم لمراکز الحمام ومخاطات البريد في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد (١٣٨) .

(واشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن ، وما دهموا به من كثرة الفتن ، عن إقامة البريد ، فاختلف بانقطاعه طريق الشام خللاً فاحشاً . والآمر على ذلك إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ثمان عشرة وثمانمائة) (١٣٩) .

الحواشي

(١) في الأصل : « نحو » .

(٢) الفاكهي : مناهج السرور والرشاد، ورقة ١١٤٢ : ١١٥٠ ، الجاحظ ، الحيوان : ج ٣ ، ص ١٤٤ : ١٤٦ ، ١٧٠ ، الديمري : حياة الحيوان الكبرى ، ج ١ ، ص ٣١٤ ، ابن سيده : المخصص ، ج ٨ ، ص ١٦٨ : ١٦٩ ، النويري : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٦٨ ، ميخائيل بن تقولا : مسابقة البرق ، ص ٢١ : ٢٥ .

(٣) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، وأنظر أيضاً : الديمري : حياة الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٦٨ ، وأنظر أيضاً : الديمري : حياة الحيوان ، ج ١ ، ص ٣١٤ . (وعن خصائص كل نوع أنظر : النويري : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٦٨ : ٢٦٩) .

(٥) النويري : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٦٩ ، الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ٣٠٩ ، حوادث سنة ٧٩٢ هـ .

(٦) النويري : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، وأنظر أيضاً : الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، الديمري : حياة الحيوان ، ج ٨ ، ص ٣١٤ .

(٧) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٨٩ ، وأنظر أيضاً : الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٨) القزويني : عجائب المخلوقات ، ورقة ٣١٤ ، ابن سيده : المخصص ، ج ٨ ، ص ٩٧٠ .

(٩) حفظ العرب في فترة الجاهلية والإسلام أسباب الحمام ، شأن حفظهم لأسباب خيولهم ، فهم بذلك يكونون قد سبقوا غيرهم من العباسيين والفاطميين . أنظر : الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٦ .

(١٠) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ ، وأنظر أيضاً : الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ : ٢١١ ، النويري : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٧١ .

(١١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٦ — ١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ . هذا ويقرر القلقشندي « نفس الجزء والصفحة » أنه سبق الفاضل « محي الدين عبد الظاهر » إلى التصنيف في الحمام أبو الحسن ابن ملاعب الفوارس البغدادى » ، (فصفه فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، وذكر فيه أسماء الطائر ، ورياشه ، والوشوم التي توسم في كل عضو ، وألوان الطيور ، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعد المسافات التي أرسلت فيها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري هذا المجرى . وأظن أن كتاب « الفاضل الفاضل محي الدين عبد الظاهر » نتيجة عن مقدمته) .

(١٢) لمقسم المؤرخون إلى فريقين بالنسبة للسنة التي اتخذ فيها نور الدين « الحمام اليهودي » ، فالفريق الأول يقرر أن ذلك كان سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م) مثل : ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٦ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ .

أما الفريق الثاني فيقرر : أن ذلك كان سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) ويمثله : المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٠ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥١ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، الباهر ، ص ١٥٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٠ (نقلاً عن ابن الأثير) ، أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٢ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(١٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٥٩ ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٢ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٠ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(١٤) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٥٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٠ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

(١٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٧١ ، وأنظر : الأنصاري : تفريج الكروب ، ص ١٤ .

(١٦) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ .

(١٧) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦ .

(١٨)، (١٩) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٢٤ ، حوادث سنة ٧٤٦ هـ .

(٢٠) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٢٥ ، حوادث سنة ٧٤٨ هـ . أما عند ابن تفرى بردى : « النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٥٦ ، حوادث سنة ٧٤٧ هـ » (فبلغ معروف الحمام الحاضر خاصة سبعة آلاف درهم) .

(٢١) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٣٩ — ٧٤٠ ، حوادث سنة ٧٤٨ هـ .

(٢٢) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٤٠ ، حوادث سنة ٧٤٨ هـ .

(٢٣) أنظر : ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٧٠ ، حوادث سنة ٧٤٧ هـ ، المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٤١ ، حوادث سنة ٧٤٨ هـ .

(٢٤) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٤٥ ، حوادث سنة ٧٤٨ هـ .

(٢٥) ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ١٣٨ ، حوادث سنة ٥٩٢ هـ : السوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٢٦) ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٦١ — ٢٦٢ ، حوادث سنة ٦٢٢ هـ ، وأنظر أيضاً : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، حوادث سنة ٦٢٢ هـ .

(٢٧) أنظر : ابن أبيك : الدر المطلب ، ص ٣٤٩ ، حوادث سنة ٦٤٠ هـ . كذا المقرئى : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٣٠٩ ، حوادث سنة ٧٧٩ هـ .

(٢٨) أنظر : المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٣٥ ، حوادث سنة ٧٤٦ هـ .

(٢٩) أنظر : المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٨٤ ، حوادث سنة ٧٢٧ هـ .

(٣٠) أنظر : ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ١٣ ، المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٨٤ ، حوادث سنة ٧٢٧ هـ ، سعداوى : نظام البريد ، ص ١٤٣ .

(٣١) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٣٢) : المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٢ ، حوادث سنة ٦٣٦ هـ .

(٣٣) ابن أبيك : الدر المطلب ، ص ٣٣٦ ، حوادث سنة ٦٣٧ هـ ، وأنظر : المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٤ ، حوادث سنة ٦٣٧ هـ .

(٣٤) ، (٣٥) ، (٣٦) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٥ ، حوادث سنة ٦٣٧ هـ .

(٣٧) ابن أبيك : الدر المطلب ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ ، حوادث سنة ٦٣٧ هـ .

(٣٨) و (٣٩) المقرئى : السلوك ، ج٣ ، ق ١ ، ص ١٣٣ ، حوادث سنة ٧٩٨ هـ
 (٤٠) انظر : الصيرفي : تزهة النفوس ، ج١ ، ص ٣٠٩ ، حوادث سنة ٧٩٢ هـ ،
 المقرئى : السلوك ، ج٣ ، ق ٢ ، ص ٧٢٠ ، حوادث سنة ٧٩٢ هـ .
 (٤١) انظر : الصيرفي : تزهة النفوس ، ج٢ ، ص ١٩٦ : ٢٠١ ، حوادث سنة ٨٠٧ هـ .
 (٤٢) المقرئى : السلوك ، ج٢ ، ق ١ ، ص ٢٠٨ ، حوادث سنة ٧٢٠ هـ .
 (٤٣) المقرئى : السلوك ، ج٢ ، ق ١ ، ص ٢٢٨ ، حوادث سنة ٧٢١ هـ .
 (٤٤) المقرئى : السلوك ، ج٢ ، ق ٢ ، ص ٣٩٩ ، حوادث سنة ٧٣٦ هـ .
 (٤٥) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٣٦٠ — ٣٩١ ، حوادث سنة ٥٨٩ هـ ، وانظر
 أيضاً : « نفس المصدر » ، ص ٤١٣ : ٤١٤ ، ابن شداد : التواهر السلطانية ، ص ١٣١ ،
 ١٣٥ ، ١٤٣ ، حوادث ٥٨٦ هـ .

(٤٦) المقرئى : خطط ، ج٢ ، ص ٢١٠ .

(٤٧) أبو شامة : الروشتين ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٠ .

(٤٨) المقرئى : خطط ، ج١ ، ص ٢١٥ ، وانظر أيضاً : أبو شامة : الروشتين ، ج١ ، ق ٢
 ص ٥٢٠ ، ابن الأثير : الباهر ، ١٥٩ هـ .

(٤٩) انظر : المقرئى : السلوك ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٣٥١ ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ ، الخطط ،
 ج١ ، ص ٢٢٠ .

(٥٠) يبرس : زبدة الفكرة ، ج٩ ، ورقة ١٧٢ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، وانظر
 أيضاً : المقرئى : السلوك ، ج١ ، ق ٣ ، ص ٦٩١ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن الفرات :
 تاريخه ، ص ٧٠ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن أبيك : الدرة الزكية ، ج٨ ، ص ٢٤٤ ،
 حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

(٥١) انظر : ابن أبيك : الدرة الزكية ، ج٨ ، ص ٢٤٤ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن أبي الفضائل :
 التهج السديد ، ص ٣٣١ ، المقرئى : السلوك ، ج١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٧ (وكذا حاشية رقم (١) من نفس
 الجزء والصفحة) كذا انظر : يبرس : زبدة الفكرة ، ج٩ ، ورقة ١٧٨ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ،
 ابن أبيك : الدر المطلوب ، ص ٣٧٥ ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٥٢) المقرئى : خطط ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ، السوطلى : حسن المخاضرة ، ج٢ ، ص ٢٢١ .

(٥٣) المقرئى : السلوك ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٣٥٧ ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ ، ابن أبيك ،
 الدر المطلوب ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦ ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٥٤) المقرئى : السلوك ، ج٤ ، ق ١ ، ص ١٧٤ ، حوادث سنة ٨١٤ هـ .

(٥٥) الصيرفي : تزهة النفوس ، ج٢ ، ص ٣٠٨ ، حوادث سنة ٨١٥ هـ .

- (٥٦) الصيرى : تزهة النفوس ، ج٢ ، ص ٣٨٤ ، حوادث سنة ٨٢٠ هـ .
- (٥٧) القرينى : السلوك ، ج١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٦ — ٦٩٧ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .
- (٥٨) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ ، وانظر مثالا لذلك عند : النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٧٠ .
- (٥٩) المجسة : موضع اللبس (القاموس المحيط) .
- (٦٠) للقرطبان : قعتان على أصل منقار الحمام . (النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٧٠ ، حاشية (٢)) .
- (٦١) المؤجج : الصدر (قاموس محيط المحيط) .
- (٦٢) السكازة : اليبس (نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٧٠ ، حاشية (٣)) .
- (٦٣) غير تفنين : غير اختلاط . (نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٧٠ ، حاشية (٥)) .
- (٦٤) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، وانظر أيضا : ابن سيده : المخصص ، ج ٨ ، ص ١٧٠ .
- (٦٥) ابن سيده : المخصص ، ج ٨ ، ص ١٧١ .
- (٦٦) يقرر القلقشندى : « صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٩١ — ٩٣ » أن القصد في ألوان الحمام ستة ، الأول البياض ، والثاني الخضرة ، والثالث الصفرة ، والرابع الحمرة ، والخامس السواد والسادس التمرى . وأن تعداد الرياش المثيرة ، فهو أن يكون في الجناحين عشرين ريشة ، وأما الذنب فالمعتبر فيه اثنتا عشرة ريشة . كما أورد تفصيل كل ذلك ، وانظر الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٥١ ، ٢٤٤ ، ٢٠٣ .
- (٦٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٨٩ .
- (٦٨) الأخضر : ما كان لون الريحان والبقول ، والتمر ، ما كانت به قط بيضاء وآخر سوداء . انظر : الجاحظ : الحيوان ، ج ٢ ، ص ٧٩ — ٨٠ ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٩١ — ٩٢ ، وانظر أيضا : الفاكهى : مناهج السرور ، ق ١٤٧ ب : ١٤٨ .
- (٦٩) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ .
- (٧٠) و (٧١) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .
- (٧٢) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .
- (٧٣) « عن أسلوب نظام الحمام » انظر : الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٥٣ ، النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .
- (٧٤) انظر : ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص ٥٣ : ٥٧ .
- (٧٥) و (٧٦) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

(٧٧) الجاحظ : الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٧٤ .

(٧٨) الجاحظ : ج٣ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٧٩) يقرر الجاحظ : « الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ » أنه بين القمص والتنف بول بعيد ، وأن بعض الحمامين كانوا يفضلون القمص على التنف ، فالقمص وإن كثر (لا يوجع ولا يفرح مغارز قصب الريش ، والتنف يوهن المنسكين . فاذا تنف الطائر مراراً لم يقو على الغاية ، ولم يلزل يوهن المنسكين ... وأنه ربما يبلغ مضرته أن الذكرا لا يجيد الإلقاح ، والأنثى لا تجيد القبول ، وربما تنفت الأنثى وقد أحدثت بيضا وقد قاربت أن تبيض فتبطئ بعد وقتها الأيام ، وربما أضر ذلك بالبيض) .

(٨٠) يضيف الجاحظ : « الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٧٥ » أن الأجود أن يخرج الذكرا والأنثى معاً إلى السطح وهما مقصودان الريش ، وذلك حتى يألفا المكان سوياً ، ثم يطير الرجل أحدهما قبل صاحبه ، ثم يصنع بالثاني كما صنع بالأول .

(٨١) الجاحظ الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٨١ .

(٨٢) الجاحظ : الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٨٣ .

(٨٣) الجاحظ : الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٨٠ .

(٨٤) ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص ٥٨ - ٦١ .

(٨٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٣٩١ ، وانظره : ج٢ ، ص ٩٧ ، وانظر أيضاً : ابن الأثير : الباهر ، ص ١٥٩ .

(٨٦) ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص ٦٣ .

(٨٧) المقرئزي : خطط ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ، وانظر أيضاً : سعداوى : نظام البريد ، ص ١٤١ .

(٨٨) كذا عند المقرئزي : « خطط ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ، وهى الصيغة الصحيحة ، أما عند السيوطي : « حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٢٢١ » (تبين) . ويعلق المقرئزي « خطط ، ج٢ ، ص ٢٢٢ » على التسمية الأخيرة بقوله : (عرف قديماً بالبر والجميزة ، وعرف بمسجد تبر ، وتسميه العامة مسجد التبن وهو خطأ ، وموضعه خارج القاهرة قريباً من المطرية) .

(٨٩) المقرئزي : خطط ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٢٢١ .

(٩٠) المقرئزي : خطط ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ، والجندارية : فئة من ممالك السلطان أو الأمير ، وهى مركبة من لفظين فارسيتين ، أحدهما « جان » ، ومعناه سلاح ، والثاني « دار » ، ومعناه مسك ، فيكون المعنى « مسك السلاح » . انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج٥ ، ص ٤٥٧ ، المقرئزي : السالك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٣٣ ، (حاشية (١)) ، Dozy : Supp. Dict. AR .

(٩١) و(٩٢) . ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص ٦٥ .

(٩٣) المقرئى . خطط ، ج٢ ، ص ٢٣ ، وانظر أيضاً : السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ، ص ٢٢١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٧ ، ص ٢٣٤ ، سعداوى : نظام البريد ، ص ١٤٠ .

(٩٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٢٢١ .

(٩٥) و(٩٦) و(٩٧) المقرئى : خطط ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ، ص ٢٢١ ، نعمان أنطون : الطائر الفريد ، ص ١٠ .

(٩٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٩٩) المقرئى : خطط ، ج٢ ، ص ٢١٠ ، ٢٣٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٢٢١ .

(١٠٠) أى علامة سلطانية .

(١٠١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٧ ، ص ٢٣٤ .

(١٠٢) هو : « محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين أبو محمد بن عبد الظاهر » (٥٦٢٠ : ٥٦٩٣ هـ // ١٢٢٣ م : ١٢٩٢ م) رئيس ديوان الإنشاء ، الذى كان له الفضل في وضع كثير من اصطلاحات ديوان الإنشاء ، ونظمه ، وبقيت نظمه واصطلاحاته معمولاً بها في مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر . وقد أرخ ثلاثة من السلاطين ، هم : « الظاهر بيبرس » ، « المنصور قلاوون » ، « والأشرف خليل بن قلاوون » . ويعتبر تاريخه على جانب كبير من الأهمية ، وذلك لأنه عاصر هؤلاء السلاطين ، وكان كاتب السمر عندهم ، ولأنه دون النصوص الأصلية للرسالات والمعاهدات .

ومن مؤلفاته : تاريخ المنصور قلاوون الذى أسماه « تشرىف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » ، تاريخ الأشرف خليل : « الألفاظ الحفية من السيرة العريقة السلطانية الأشرفية » ، وله في التاريخ كتاب باسم : « كتاب الروضة البهية الزاهرة في خطط المغربة بالقاهرة » ، وكتاب : « تمام الحاتم » ، فضلاً عن مقامة في مصر والنيل ، وكثير من الرسائل . (وعن المزيد من ترجمته ، انظر : مراد كامل : تشرىف الأيام ، ص ٩ : ٣٤) .
« وانظر الحاشية التالية » .

(١٠٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٢٢١ ، والمقرئى ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٣٠ . هذا ويضيف « السيوطى » (نفس الجزء ، والصفحة) أن « ابن عبد الظاهر » قال : (وأنا ما كتبها قط إلا ببسلة للبركة) .

(١٠٤) يقرر السيوطى : « حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٢٢١ » والمقرئى : « خطط » ج٢ ، ص ٢٣٠ « أن الأبرائل كانوا يؤرخون بالساعة واليوم لبالسنتين ، ويضيف المقرئى نفس الجزء والصفحة » لى ذلك بقوله : (وأنا أؤرخها بالسنة) .

(١٠٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٤٣٤ .

(١٠٦) كذا عند المقرئى : « خطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ » ، أما عند السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٢١ « ولا يحمى » .

(١٠٧) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٢١ ، وانظر المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(١٠٨) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(١٠٩) المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(١١٠) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٣٥ .

(١١١) الأصفهاني : الفتح القسى ، ص ٣٦٠ ، حوادث سنة ٥٨٦ هـ ، وانظر أيضاً : غنام : الحمام وتربيته ، ص ٩٨ .

(١١٢) المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٢١ ، وانظر أيضاً : ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص ٦٦ : ٦٧ . وانظر أمثلة لوضع البطائق تحت أجنحة الحمام عند كل من : بيبس : زبدة الفسكرة ، ج ٩ ، ورقة ١٧٢ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٩٧ ، ابن الأثير : الباهر ، ص ٣٦ - ٣٧ ، ابن أبيك : الدر المطلوب ، ص ٣٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٨ ، حوادث سنة ٧٥٠ هـ للمقرئى : الملوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٥ ، حوادث سنة ٦٣٧ هـ ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٢ ، ٦٩٦ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٠٨ ، حوادث سنة ٧٢٠ هـ ، ص ٢٢٨ ، حوادث ٧٢١ هـ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٧ ، ص ٢١٥ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، الأصفهاني : الفتح القسى ، ص ٣٦٠ ، ٣٧٠ ، ص ٤١٤ ، حوادث سنة ٥٨٦ هـ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٣١ ، حوادث سنة ٥٨٦ هـ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ .

(١١٣) المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٨٠ ، وانظر ، سعداوى : نظام البريد ، ص ١٤١ .

(١١٤) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٨٠ ، وانظر : السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

(١١٥) المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ، وانظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٢ .

(١١٦) و(١١٧) المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، وانظر أيضاً : ابن همام : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، سعداوى : نظام البريد ، ص ١٣٩ .

(١١٨) العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٢ .

- (١١٩) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .
- (١٢٥) انظر : المقرئى : خطاط ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ، سعادوى : نظام البريد ، ص ١٤٠ .
- (١٢١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٢ .
- (١٢٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٢ .
- (١٢٣) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٢ .
- (١٢٤) العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ .
- (١٢٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٢ .
- (١٢٦) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .
- (١٢٧) كذا عند كل من : العمرى : « التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٣ . أما عند ابن شاهين : « زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ : (ثم إلى غزة ، وإلى القدس الشريف ، وإلى نابلس ، وإلى الخليل عليه السلام ، ثم الصافية ، ثم السكرك) .
- (١٢٨) العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٣ ، وانظر : ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .
- (١٢٩) كذا عند القلقشندي : « صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٣ . أما عند العمرى : « التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ : (ثم من دمشق يسرح الحمام إلى بعلبك ، ويسرح إلى قارا ، ويسرح إلى القريتين) .
- (١٣٠) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .
- (١٣١) كذا عند كل من : العمرى : « التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٣ . أما عند ابن شاهين : « زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ : (ثم إلى دمشق ، ثم إلى بعلبك ، وإلى قارا ، ثم إلى حمص ، ثم إلى حماة ، ثم إلى المعرة ، ثم إلى خان تومان ، ثم إلى حلب) .
- (١٣٢) تعرف كذلك « بقلعة السلاطين » . انظر : العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٤ .
- (١٣٣) و (١٣٤) : العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ ، وانظر أيضا : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٤ .
- (١٣٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩١ .

(١٣٦) المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(١٣٧) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٣٧ ، حوادث سنة ٧٧٩ هـ ،
وانظر : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ، ابن أيبك : الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ٢٤٥ ، حوادث
سنة ٦٨٠ هـ .

(١٣٨) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٠ ، المقرئى : خطط ،
ج ١ ، ص ٢٢٦ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ . هذا ويقرر الأتصاري «تفريغ الكروب» ص ١٢ —
١٣ « أنه كان في (أول الدولة التركية عند وقوع الحرب بين ملوك الديار المصرية وبين التتر
أناس مرتبون على رموس الجبال ، مرصدون لذلك بحال على السلطان » ، «مذكرون من الفرات
إلى غزة ، فإذا حدث حادث من جهة التتر أوقدوا النار ودخنوا ، فيحصل ذلك في أسرع
وقت من الفرات إلى غزة ... ثم يرسل الحمام من غزة إلى مصر ، فيعلم خبر ذلك في اليوم
الواحد ، ثم بطل ذلك بوقوع الصلح بين التتر وملوك الديار المصرية وزالت معاقبته » . وعن
«النوادر» : انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

(١٣٩) المقرئى : خطط ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

المراجع

أولاً - المخطوطات :

١ - بيبرس الدوادار :

• زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة .

• الجزء التاسع ، (مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨)

٢ - الفاكهي (الشيخ زين الدين عبد القادر أحمد بن علي) :

— مناهج السرور والرشاد والرمي والسباق والجهاد

• (مخطوط بالمكتبة الأزهرية رقم ٤٢٧٩٩ [١٠] عروس)

٣ - القزويني :

— عجائب المخلوقات

• (مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٢٢١)

ثانياً - المصادر المطبوعة :

١ - الأصفهاني (العماد الكاتب) :

— الفتح القسي في الفتح القدسي .

• تحقيق : محمد محمود صبح . (ط . مصر سنة ١٩٦٥)

— الأنصاري (عمر بن إبراهيم الأوسي)

تفريج الكروب في تدبير الحروب

• تحقيق : جورج سكانيون (القاهرة سنة ١٩٦١)

٢ - ابن الأثير (أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم

ابن عبد الواحد الشيباني) :

١ - الكامل في التاريخ . (ط . مصر سنة ١٢٩٠ هـ)

- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل .

تحقيق : عبد القادر أحمد طليحات (ط . مصر سنة ١٩٦٣)

٣ - ابن أبي الفضائل (مفضل) :

- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .

(ط . باريس سنة ١٩١١ : ١٩٣٠)

٤ - ابن أيك (أبي بكر بن عبد الله بن أيك الدواداري) :

كنز الدرر وجامع الغرر

- ج ٧ : الدر المطلوب في أخبار بني أيوب

تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور

(ط . مصر ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م)

- ج ٨ : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية

تحقيق : أولرخ هارمان (ط . مصر ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م)

٥ - ابن بطوطة :

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

(ط . مصر سنة ١٣٢٢ هـ)

٦ - ابن تغري بردى الأتابكي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف) :

- النجوم الزهرة في ملوك مصر والقاهرة

١٢ جزء (ط . كاليفورنيا سنة ١٩٠٩)

ج ١٣ ، ١٤ (ط . مصر ١٩٧٠ : ١٩٧٢)

٧ - ابن سيده (أبي الحسين علي بن اسماعيل النحوي الأندلسي) :

- المختصر (بولاق : ١٣١٨ هـ)

٨ - ابن شاهين (غرس الدين خليل) :
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
تحقيق : بولس راويس . (ط . باريس ١٨٩٤)

٩ - ابن شداد (بهاء الدين) :
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
تحقيق : جمال الدين الشيال (ط . مصر ١٩٦٤)

١٠ - ابن عبد الظاهر (محيي الدين) :
- تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور
تحقيق : مراد كامل (ط . مصر ١٩٦١)

١١ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب
ج ١ : ٣ تحقيق : جمال الدين الشيال
(ط . مصر ١٩٥٣ - ١٩٦٠)

ج ٤ ، تحقيق : حسنين محمد ربيع
مراجعة : سعيد عبد الفتاح عاشور
(ط . مصر ١٩٧٢)

١٢ - أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي) :
- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية
تحقيق : محمد حلي محمد أحمد (ط . مصر ١٩٦٢)

١٣ - أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل) :
- المختصر في أخبار البشر (ط . بيروت)

١٤ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) :
- الحيوان

تحقيق : سيد السلام هارون

(ط . مصر ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م)

١٥ - الدميري (كمال الدين) :

- حياه الحيوان الكبرى (ط . مصر ١٣١٩ هـ)

١٦ - السيوطي (جلال الدين السيوطي الشافعي) :

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (ط . مصر ١٢٩٩ هـ)

١٧ - الصيرفي (الخطيب الجوهري علي بن داود) :

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان .

تحقيق : حسن حبشي

صدر منه جزءان (ط . مصر ١٩٧٠ : ١٩٧١)

١٨ - العمري (القاضي شهاب الدين) :

- التعريف بالمصطلح الشريف (ط . مصر ١٣١٢ هـ)

١٩ - القلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي) :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا

١٤ جزء . (ط . القاهرة ١٩١٣ : ١٩١٩)

٢٠ - المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي) :

- السلوك لمعرفة دول الملوك

ج ١ ، ٢ (في ستة أقسام) تحقيق : محمد مصطفى زيادة

(ط . مصر ١٩٤٢ : ١٩٥٨)

٣٣، ٤ (في ستة أقسام)

تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور

(ط . مصر ١٩٧٠ : ١٩٧٣)

— المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار

(ط . بولاق ١٢٧٠ هـ)

٢١ — النويري (شهاب الدين أحمد) :

— نهاية الأرب في فنون الأدب (ط . مصر ١٩٢٨ : ١٩٣٨)

ثالثا : المؤلفات الحديثة :

١ — سعداوى (نظير حسان) :

(ط . مصر ١٩٥٣)

نظام البريد في الدولة الإسلامية

٢ — غنام (عبد الغنى) :

(ط . مصر ١٩٣٦)

الحمام وتربيته

٣ — ميخائيل بن نقولا بن إبراهيم صباغ :

مسابقة البرق والقمام في سعاة الحمام

(نقله من الفرنسية إلى العربية د. سلوستر دسامبي ،)

(ط . باريس ١٨٠٥)

٤ — نعمان أنطون :

(ط . مصر ١٨٩٠)

الطائر الغريد في وصف البريد